

النخبة المجددة والمسألة التعليمية 1930 - 1912

سيدي محمد المعروف الدفالي

ذ. التاريخ المعاصر بكلية آداب عين الشق الدار البيضاء.

أنشأ نظام الحماية ومنذ شروعه في هيكلة أجهزته سنة 1912، جهازا اهتمام بأمور التعليم تحت اسم "مصلحة التعليم"، غير اسمه فيما بعد ليصبح "مديرية التعليم العمومي". اهتم هذا الجهاز في بدايته بالمتطلبات التعليمية لأبناء المهاجرين الأوربيين عموما، ثم المتطلبات التعليمية لأبناء اليهود المغاربة، ثم أبناء المسلمين المغاربة، الذين تأسست من أجلهم "مصلحة التعليم الفرنسي الإسلامي"¹، وبإصلاحات الحماية في هذا المجال، تم تأسيس نظام تعليمي جديد عرف اكتماله بعد حوالي ثلاثة عشر سنة من عقد الحماية².

موقف الإصلاحيين من النظام التعليمي الجديد :

توزعت النخبة، إزاء هذه الإصلاحات، وإزاء نظام التعليم الوافد، مواقف معارضة، وأخرى مؤيدة، وتحكم في موقف المعارضين الرؤية التي تجعل هدف التعليم هو المحافظة على الثقافة القائمة أو السائدة، والربط بين هذه المسألة، ومسألة الهوية والاستمرار، وكذا الرؤية التي توقف التعليم عند حد تلقين الأجيال لبعضها خبرات ومعلومات الأجيال السابقة. أما المؤيدون- وعلى رأسهم رموز الإصلاح - فرحبوا بتلك الإصلاحات من منطلق الشعور بحاجة البلاد إليها في النهوض والتطور.

1- أدت هذه السياسة إلى خلق ثلاثة أنواع من التعليم :

- تعليم فرنسي : وهو نسخة من التعليم الذي كان سائدا بفرنسا وقتذاك.

- تعليم عبري : وهو تعليم فرنسي إضيفت إليه حصص لتدريس اللغة العبرية، والثقافة العبرية.

- تعليم فرنسي إسلامي، خاص بأبناء المغاربة المسلمين، وكانت مدارسه موزعة بين مدارس حضرية وأخرى قروية بمواصفات لكل منها، ومدارس لأبناء الأعيان، وأخرى للعامة، ومدارس مهنية... ولكل من هذه المدارس طبيعتها، ومناهجها وطرق تدريسها، والأهداف المتوخاة منها.

2- أنظر حول الإصلاحات التعليمية للحماية الفرنسية بالمغرب: المروني المكي : الإصلاح التعليمي بالمغرب 1956-1994- عياش ألبير : المغرب والاستعمار، حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، البيضاء دار الخطابي 1985 - فارس محمد خير : تنظيم الحماية الفرنسية بالمغرب 1912-1939، دمشق ب ن 1972.

ديميس جون جيمس / حركة المدارس الحرة بالمغرب، ترجمة السعيد المعتصم، الدار البيضاء، تانسيفيت 1991.

لهذا ركز خطابهم الإصلاحي على التعليم بمعناه الوافد، وسيلة للتقدم وأحد أسباب القوة، بل هو سببها الرئيسي، ومن هنا ربطوا بين هدفهم الأسمى "التقدم" أو "التطور" وبين تعليم النشء تعليما عصريا، ربط الغاية بالوسيلة. فقد رأوا في التعلم الجديد، برامج ومناهج، ونظاما، أداة متقدمة وفعالة في أفق مطمح التغيير، بإنتاج خريجين متفحين وذوي اتجاهات إيجابية يبذرون بذور مناهج وأساليب تفكير وعمل جديدة ومفيدة. إن هذه الرؤية هي التي جعلت إجراء سلطات الحماية الإصلاحي، الذي شمل ميدان التعليم، محل ثناء وتنويه من طرف بعضهم. فقد لاحظ الحجوي، أن الفرنسيين لما نشروا حمايتهم على المغرب، لم يقتصروا في اهتمامهم على السياسة، والاقتصاد، والانتفاع، بل اهتموا إلى جانب ذلك بما يمكن أن يحتلوا به قلوب المغاربة بعد احتلال أرضهم، ففكروا في "أسمى مبدأ وأعلاه، وهو الثقافة العقلية والتعليم الأهلي"¹. ويمكن أن نلاحظ من هذا الكلام، التقاء الحجوي في الحديث عن "احتلال قلوب المغاربة" أو "غزو نفوسهم" مع رؤية الحماية، التي جعلت هدف التعليم العصري "فتح المغرب مغنويا، إلى جانب فتحه عسكريا"² إلا أنه سرعان ما ندرك اختلاف المقصد، ووعي المصلحين بالواقع وما كانوا يصبون إليه، إنه الوعي الذي فرض تعدد واجهات تصورهم الإصلاحي للتعليم، وحرصهم على تسويق "التعليم الجديد"، بما يعنيه ذلك من رغبة في التحديث ومسايرة العصر في هذا المجال.

فمثل كل نخب التنوير والتحديث، أولى المصلحون أهمية واهتماما كبيرين للعلم والمعرفة والتعليم، فجمعوا من موضوعه أحد مضامين "النصيحة"، والدعوة وحاضروا حوله، وألفوا المؤلفات، وقدموا التقارير والمطالب الإصلاحية للمراجع العليا مخزنيا وحماية، إذ إلى جانب غزارة مساهمات محمد بن الحسن الحجوي، في هذا الباب واشتهاره فيه، ألف أحمد المواز تأليفه "خطوة الأقدام في التعليم والتربية في الإسلام، وأفرد ابن الأعرج السليمانى للعلم والتعليم حيزا مهما، ضمن أفكاره ومؤلفاته، كما نشر عمر الحجوي مؤلفه "العلم وإلا الموت"، وركز أحمد الصبيحي على العلم والتعليم أصل الأصول في تأليفه "أصول أسباب الرقي الحقيقي"، مثلما رفع أحمد النميشي التقارير الضافية لكبراء المخزن، ورجال الدولة الحامية في الموضوع... الخ. ركز خطاب الإصلاح في هذه المؤلفات، وأشباهها الكثيرة، في مغرب بداية الحماية، على تمجيد العلم والتعليم، ونقد واقع "التعليم القديم"، والدعوة إلى التجديد والتحديث، والمطالبة بتعميق وترسيخ الإصلاحات بإبداء الرأي حولها واقتراح رؤى ونظرات إزاءها، فكان خطاب هذه النخبة ثنائيا في مواجهته ودعوته الإصلاحية. ينشر فضائل العلم والتعليم الجديد، في أوساط المغاربة، ويدعوهم إلى اعتناقه،

¹ - الحجوي محمد بن الحسن : المعارف في المغرب وجهة د الحكومة ، م خ و ح 152 ص 1.

² - من تقرير للحماية سنة 1914 (rapport général p 155) عن فارس محد خير : تنظيم الحماية ... ص 314.

ويرصد إصلاحات الحماية فيدعو إلى تقويمهما عن طريق الترشيذ، وعن طريق ضرورة الانضباط لمقومات البلد الثقافية والدينية.

تمجيد العلم والمعرفة والتعليم :

يزخر خطاب دعاة الإصلاح، في المرحلة، بعدة تعاريف للعلم لم يقصد أصحابها الدقة في ذلك ولا وضعها نصب أعينهم، لسبب واضح هو نظرهم للعلم وسيلة وأداة أكثر من نظرهم إليه لذاته، فالجانب النفعي حتم تعريفات مرتبطة بالمنفعة وبالمستقبل. فالعلم - على حساب ما يمكن أن ننعتة تعريفات نظرية- لدى هؤلاء هو معرفة الأشياء على ما هي عليه¹، وارتباطه بالمعرفة جعل منه "الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان الأعجم"² أحيانا، وأحيانا أخرى الحد الفاصل بين الحياة والموت. فالهياكل بدون علم أموات في صورة أحياء- كما يرى ابن المراز-³. وهي نفس الرؤية التي جعلت عمر الحجوي يصنف العلم أمرا لازما لمن أراد الحياة، ويطرح أمام الإنسان أمرين لا مندوحة من أحدهما "العلم وإلا الموت"⁴. وإلى جانب مثل هذه التعريفات العامة، يقدم "الإصلاحيون" تعريفات للعلم، ارتبطت مباشرة بدوره أداة ووسيلة، وبفضائله التي تلعب دورا في التطور والتحول والتغيير. فالعلم في رأي ابن المراز - هو الذي يحول الإنسان من حالات السلب إلى حالات الإيجاب⁵ وفي رأي الحجوي - هو الذي لا يقلب الإنسان فقط، بل كذلك الأشياء، يحول البر بحرا،

¹ - السليمانى أبو عبد الله : اللسان العرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، الرباط، مطبعة الأمانة، 1971 ص 160.

² - السليمانى: المرجع نفسه والصفحة نفسها.

³ - ابن المراز احمد : حجة المنذرين على تنطع المنكرين : فاس طبعة حجرية، ت الخاتمة ص 35

⁴ - الحجوي عمر : العلم وإلا الموت، فاس مطبعة اندري، 1924 ص 16.

⁵ - يرى ابن المراز أن فضيلة العلم هي "التي تنقل الإنسان من الجهل إلى العلم، ومن البلادة إلى الذكاء، ومن التهور إلى الضبط، ومن الشراسة إلى السلاسة، ومن البربرية إلى الحضرية، ومن الهمجية إلى المدنية، ومن العلم إلى العدل، ومن العجلة إلى التأني، ومن العي إلى الفصاحة، ومن الطيش إلى الرزانة، ومن المابرة إلى الإنصاف، ومن الشطح إلى الدب، ومن الفحش إلى الحياء، ومن الدناءة إلى شرف الهممة، ومن المعاصي إلى التوبة، ومن الجفاء إلى الوفاء، ومن القساوة إلى الشفقة، انظر ابن المراز احمد : حجة المنذرين ... خاتمة ص 35. ويرى الحجوي أن العلم يقلب الإنسان ويحوله فيصبح "البدوي الجافي يتدفق أدبا ونبلا حتى يصير قاضيا وموتقا ومفتيا ... ومهندسا وطيبيا، ومسير عمل " الحجوي.م خ و ح 118 ص 69 عن بنعدادة آسية، مفهوم الحماية عند الحجوي، ص 109.

والتراب تبراً¹، وآثاره ومخترعاته هي التي جعلت العلماء / غاصوا في الماء، وحلقوا في الهواء ... وداروا حول الأرض في بضعة عشر يوماً...².
لقد ربط الإصلاحيون بين العلم والنتائج المتوخاة منه، وأساساً "القوة" و"التقدم" فاعتبروه هو القوة التي تقوى بها الأمة على أمة، وربطوا بين تزايد المعرفة، والقوة، والحصانة، والغلبة، منظرين إلى أن الإنسان "كلما زاد معرفة وعلماً، زاد في القوة الموفرة لعدده والصائنة لوجوده"³. وكلما كان (...) أكثر عملاً، كان أشد قوة، وكان له الغلب على خصمه قطعاً"⁴. ومثملما ميزوا القوة، نتيجة للعلم، ربطوا "تقدم الأمم، بقدر اعتنائها بالعلم والعرفان"⁵. هكذا انصبت تعريفات وتحليلات هذه النخبة للعلم، فصورته علة العلل، ومفتاح المفاتيح، والصمام الذي يتوقف عليه كل شيء إيجابي ونافع. وقد شكلت هذه الرؤية أحد القناعات الثابتة، لدى رموز هذا الاتجاه، تلميحا وتصريحا، وهي قناعات اعتبرت العلوم والمعارف - كما قال الحجوي - "أولى وأحق من الكل، وبها يوجد الكل"⁶. ومقابل العلم والعلوم والمعارف، التي استخدموها في نفس المعنى تقريبا، وضعوا "الجهل" و "الأمية"، فاعتبروا "الجهل (...) سبب انحطاط فريق عن فريق"، وصوروا الجاهل " كالأعزل في القرون الماضية"⁷، كما شبهوا الأمي، بعضو أشل، ضرره على مجتمعه أكثر من نفعه، وعزوا ذلك لعدم تمييزه بين الضار والنافع، وبساطة فكره وما قد ينجم عن ذلك من آثار سلبية⁸.

وفي سياق المديح الذي كالوه للعلم والعلوم، لا نجد اتفاقا بينهم حول تحديد المقصود ب "العلم" أو "العلوم". ونلاحظ عمق التجاذب في خطابهم بين "العلوم الشرعية" و "العلوم المرعية"، والمنحى التوفيقي الذي سلكوه للمصالحة بين النوعين، إذعانا للمجتمع الذي كان من الصعب عليه تقبل أي تجديد لا يمر عبر التوافق مع الدين والموروث، وإذعانا لقناعات شخصية، اختلفت حدتها بين مصلح وآخر. لقد نحا

1- الحجوي : المرجع نفسه ص 109.

2- الحجوي : م خ و ح ص 3.

3- السليمانى : اللسان ... ص 134.

4- السليمانى : ص 134.

5- الحجوي محمد بن الحسن : النظام في الإسلام، انظر الخلوفي محمد الصغير، انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، دواعي الإصلاح والتنظيم، مذكرة الحجوي، نموذج من الكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين، ط 2 الرباط، دار المعارف الجديدة 1995 ص 96.

6- من كتاب مفتوح للسultan عبد الحفيظ على يد الفقيه احمد الخضر الشنكيطي. انظر نصه ب الخلوفي ص ص 72- 77 ص 75.

7- السليمانى : اللسان ... ص 134.

8- نقد كتب الدراسة للعلوم العربية بافريقيا الشمالية ص 61.

أحمد الصبيحي، في تصنيفه للعلوم وترتيبها، المنحى المعروف في الثقافة العربية الإسلامية مع إضافة بسيطة، فتحدث عن سبعة أجناس هي : العلم الشرعي، والعلم الآلاتي، والعلم الإلهي، والعلم الطبيعي، والعلم الرياضي، والعلم الاستعماري وعلم الحقوق. وتحدث عن الأقسام التي يتوزع إليها كل جنس وعن حرف وصنائع أصبحت لها قواعد منضبطة رقت إلى مصاف العلوم¹. وفي هذا التصنيف المعمم، الذي شمل مختلف العلوم والمعارف، منح الصبيحي الأولوية للعلوم الشرعية، فاعتبرها "الأساس الأول والأصل الأصيل الذي عليه للمسلمين المعول" وصنف في المقام الثاني بعدها "العلوم المرعية"، من طبيعية ورياضية، وحث على تعاطيها لسببين : أولاً لأن "بها سادت الأمم، وصارت في الطريق المدني الأقوم" وثانياً : لمسيب الحاجة إليها، في هذا العصر الحالي، مع نفعها في كثير من العلوم الشرعية أيضاً². وقرىبا من هذا الموقف التسويغي، الذي هدف إلى إظهار فوائد العلوم المرعية، إزاء ما هو دنيوي، وإزاء ما هو ديني، أكد ابن الأعرج أن العلوم الرياضية والطبيعية، هي التي أدت بالأوربيين إلى الاختراعات الوقتية، والمستنبطات الصناعية³. إلا أنه حرص على إظهار قناعة تصور نوعاً من الجدلية بين الدين والعلم، فاعتبرهما "كتوأمين متلاصقين، فصلهما يؤدي إلى هلاكهما"، وربط تطور كل منهما بالثاني، فرأى أن "العلم ينمو متى كان دينياً والدين يثبت متى كان علمياً⁴، وبهذه الرؤية توخى انتشار العلوم المرعية، دون مس بالدين والعلوم الشرعية، وتوخى تبادل الاستفادة، والمنفعة بين الديني والدنيوي، من أجل توافق وتوازن يضمن لكل منهما الاستمرار والتطور. أما عمر الحجوي فوظف نوعاً من أسلوب الإيحاء بضرورة الاسترجاع أو الاسترداد، لإظهار "أن العلوم العصرية" أصيلة وليست دخيلة. فعلوم الأسلاف في نظره- هي "المسماة الآن ظلماً وعدواناً وتعدياً على آبائنا الكرام بالعلوم العصرية، حتى جنى عليها هذا الاسم وحكم عليها بالرفض أزماناً طويلة⁵، وبالتالي لابد من التخلص من تموقف خاطئ، والتعامل مع هذه العلوم كإرث ضمن إرث الأسلاف جميعه دينياً كان أم دنيوياً. ولعل الدعوة إلى اختيار العلوم حسب زمانها ونفعها جاءت أكثر وضوحاً لدى أحمد بن المامون البلغيتي، الذي صنف : أنفع العلوم ما صادف

¹- انظر : الصبيحي أحمد : أصول أسباب الرقي الحقيقي، ضمن العلوي بنسعيد، الاجتهاد والتحديث دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب، مالطا، مركز دراسات العالم الإسلامي 1992، ص 132-133.

²- الصبيحي أحمد : أصول أسباب الرقي الحقيقي ص 134-135.

³- السليمانى : اللسان ... ص 134.

⁴- السليمانى : اللسان.. ص 162.

⁵- الحجوي عمر بن الحسن : العلم وإلا الموت ص 19.

احتياج الوقت إليه، واستشراف العليل عليه¹، ولم يخرج الحجوي عن نفس السياق، إذ مدح المكانة العيا، والمقام الأول الذي بوأه الإسلام للعلم²، واستناد نظام المسلمين في أخذ العلم على الاجتهاد والتجربة" جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا، ونبذهم التقليد³، وخلص إلى أن الوصول إلى التقدم يفرض إتيانه من بابيه، وهو تحصيل العلوم الرياضية والطبيعية⁴، من باب أنها علوم جديدة وجب الاستفادة منها، ومن باب أنها علوم خلفها المسلمون لأحفادهم، فأضاعوها⁵، وحن الوقت لاستردادها.

على العموم، فما يمكن استنتاجه من خطاب رموز الإصلاح حول العلوم والمعارف هو أملها في أن تقوم بالبلاد نهضة علمية تشكل أساس ومفتاح نهضات أخرى في سائر المجالات⁶، وإرساء أسس مشروع هذه النهضة العلمية. لقد اهتموا بالتعليم مقتنعين بأن أحد سببي ارتقاء الأوروبيين "وشموخ مجدهم وعلو كعبهم" هو تعليم الأولاد بنين وبنات، على التربية الصحيحة الاستقلالية التي تؤهلهم للقيام بعظيم المهمات⁷، وبضرورة إصلاح التعليم لتلمس أسباب النهضة، "فإن شاءت الأمة النهوض فلتبدأ بإصلاح التعليم"⁸.

نقد واقع التعليم القديم :

فرض التعليم الوافد مع الحماية، بنظامه ومناهجه وبرامجه ومضامينه، على النخبة المغربية، ضرورة المقارنة بينه وبين نظام التعليم الذي كان سائدا بالمغرب. وهي المقارنة التي أبرزت للإصلاحيين، جدة التعليم الوافد ونفعيته، وكشفت عمق تأخر نظام التعليم المغربي وتقليديته. إن الإحساس بتأخر وجمود الواقع المعرفي

1- البلغيثي أحمد بن المامون : من تقريره كتاب السليمانى : اللسان العرب، انظر الكتاب نفسه ص 182.

2- الحجوي : النظام في الإسلام ص 96.

3- نفسه ، النظام في الإسلام ص 100.

4- الحجوي : م خ و ح ص 3. عن بنعدادة آسية : مفهوم الحماية عند الحجوي ص 112.

5- الحجوي : النظام في الإسلام ... ص 100

6- من مظاهر هذا التصور والأمل، أبيات وردت في قصيدة لابن الأعرج منها :

فلاحظ الثلاث إنها دول وزاول العلم وإن العلم يهدينا

إن الجهالة داء لا دواء له تطغى البغاة وتنشط المحانينا

إذا ظفرنا بما نرجوه ونطلبه من المعارف وافقنا أمانينا

انظر القصيدة ب السليمانى : زبدة التاريخ ص 429-431.

7- الحجوي : من تقريره كتاب ابن الأعرج، اللسان العرب انظر : السليمانى : اللسان العرب ص 191.

8- الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامى، - القسم - الرابع - ج 2 المدينة المنورة، المكتبة العلمية، 1996 ص 404.

والتعليمي، لدى عناصر من النخبة المغربية، ما فتئ يتجذر منذ إحساس المغاربة بالتحويلات التي بدأ يعرفها العالم، ومنذ الإصلاحات التي عرفها مجال التعليم في مصر على عهد محمد علي، وفي بعض البلاد العربية الإسلامية الأخرى مثل تونس. غير أن وصول نظام تعليمي بمواصفات متطورة إلى عقر الدار، أذكى شحنة هذا الإحساس، وفتح العيون، أكثر من أي وقت مضى، على أن لا مناص من أجل النهوض بالتعليم المغربي من إصلاحه وتجديده، والنفخ فيه من روح التعليم الأوربي الوافد.

ومثل الطبيب الذي يبدأ بالتشريح والكشف عن الأمراض قبل وصف الدواء، اهتم هؤلاء بإظهار سلبيات الواقع التعليمي، وتجلياته، وأسباب ذلك، كمقدمة للإبداء برائهم قصد التجاوز، وإصلاح الحال. وصف أحد المصلحين بلاد المغرب في هذه المرحلة بأنها "انحطت في العلوم والمعارف، وضرب الجهل بها أطنابه، فكادت تكون همجية حقيقية"¹. ويرجع المتففقون معه في الرأي أهم أسباب تراجع العلوم وانحطاطها وتأخر العلم عموماً في المغرب، إلى واقع التعليم بنية، وسيراً². وصف الحجوي في رسالة بعث بها إلى السلطان مولاي عبد الحفيظ، قبيل الحماية، حول عموم واقع الحال دونية البلاد مقارنة مع غيرها في مجال النظام التعليمي، بقوله: "أما نحن فليس هناك ما يطلق عليه إدارة المعارف، ولا لهذا الاسم مسمى عندنا، ولإسم المدرسة ولا المعارف"³. واعتبر مدارس المصباحية والعطارين والشراطين، والصفارين وأساتذة القرويين "لا يقاسون بما يوجد في مصر وتونس فضلاً عن البلاد الأورباوية من المدارس"⁴. وبالإضافة إلى انعدام المؤسسات، والبنى التحتية، وصف الإصلاحيون، البنى التعليمية التي كانت سائدة بالتحجر والتأخر، والعقم. فاتقدوا في المرحلة الأولى في التعليم، وهي "المسيد"، أو "الكتاب القرآني"⁵، نظامها التعليمي، الذي كان "بلا ترتيب ولا تدرج"⁶. وانتقدوا طول المدة التي يستغرقها التلميذ، حيث لا يغادر الكتاب

1- بنونة عبد السلام : من رسالة لابنه الطيب بتاريخ 27 مارس 1929. انظر : حكيم محمد ابن عزوز : أبو الحركة الوطنية الحاج عبد السلام بنونة، حياته ونضاله، ج 1 الرباط مطبعة الساحل 1987 ص 99.

2- الصبيحي أحمد : أصول أسباب الرقي الحقيقي ص 135.

3- الحجوي : من كتاب إلى السلطان المولى عبد الحفيظ على يد الفقيه أحمد الخضر الريسوني، انظر نصه بالخلفي ص ص 72-77 ص 77.

4- نفسه ونفس الصفحة.

5- مهمة الدراسة في "المسايد" أو الكتاتيب القرآنية" كانت تنحصر في تعلم مبادئ الكتابة العربية، وتحفيظ القرآن، وبعض المتون الدينية، وغيرها، ثم التمرن على رسم المصحف على نحو ما كتبه الصحابة في عهد عثمان ومعتمد التعلم في هذه المؤسسة، كان هو الحفظ. انظر : بن عبد الله محمد : مشكلة التعليم الحر - الحلقة 4 - الراي العام - السنة 4- عدد 165 - الجمعة 25 غشت 1950

6- الصبيحي أحمد: أصول أسباب الرقي الحقيقي ص 135.

إلى وسنه نحو عشرين سنة¹. والنتائج المحصل عليها في النهاية سلبية، "فلا ينتج واحدا في المائة"². وقد لا يتعلم التلميذ خلال هذه المدة الطويلة، في حالة إن كان حادقا سوى تركيب الكلمات، وتحسين الخط، وإن كانت له ذاكرة حافظة فلا يتجاوز حفظ القرآن. كما انتقدوا عليها عدم جاذبيتها وتغييرها للتلاميذ الذين كانوا يهربون منها ولا يذهبون إليها إلا خوفا وقهرا³.

أما المرحلة الثانية، مرحلة التعليم بالقرويين، أو ابن يوسف، التي يلتحق بها القليل من التلاميذ، الذين أنهموا دراستهم بالمساييد، فأخذوا عليها هي الأخرى طول المدة وضعف أو انعدام النتائج، فالمتروك على "دروس القرويين" تلزمه سبع أو ثمان سنوات، بعد إنهاء دراسته بالمسيد، وهذه المدة الدراسية الجديدة، تجعل الطالب يشرف على الثلاثين سنة من عمره، و"يكون قد أدركه الزواج والانشغال بالأولاد" ولا تكون المحصلة - كما قال الحجوي - "إلا (...) ما يعتبر علما ابتدائيا عند غيرنا من الأمم"⁴. ويرجع دعاة الإصلاح ضعف مردودية التعليم النظامي مثلا بالقرويين، إلى مجموعة من العوامل منها: النظامي مثل : افتقار هذه المؤسسة إلى قانون ينظم التعليم بها، وافتقارها إلى أقسام أو فصول تميز بين المبتدئ، والمنتهي وافتقارها إلى ضبط وانضباط زمني، حيث كان الطلبة يلتحقون بالدروس حسب أهوائهم، ومنها المتعلق بمواد التدريس مثل، إهمال وهجر عدد من أصناف العلوم والمعارف، وخاصة العلوم الطبيعية، والرياضية⁵، والتركيز على العلوم الدينية "حتى صار المتخرج من هذه المعاهد المغربية، لا إمام له، بما سوى ظواهر علوم الدين ووسائلها الضرورية، فلا تجد من له إمام بسياسة أو تاريخ أو جغرافية، بل وبالحساب ولا مبادئ الهندسة، أو غيرها من العلوم التي هي ضرورية"⁶، إضافة إلى هجر علوم دينية رئيسية مثل "التفسير" الذي انصرف عنه العلماء تطيرا، و "الحديث"⁷، وما انجر عن كل هذا التراجع، إلى أسلوب التعليم الذي اعتمد الحفظ والاستظهار⁸، وإبعاد النصوص التشريعية الكبرى، ومؤلفات الأئمة الكبار، التي تم تعويضها بالمختصرات، المحفوظة

¹ - الحجوي م خ و ح 115 ص 480 عن بنعدادة أسية : مفهوم الحماية عند الحجوي ص 111.

² - الصبيحي أحمد : أصول أسباب الرقي الحقيقي ص 135.

³ - الحجوي نفسه ص 488.

⁴ - الحجوي : م خ و ح 115 ص 480. عن بنعدادة أسية : مفهوم الحماية عند الحجوي ص 111.

⁵ - الصبيحي، أصول ...، ص 134.

⁶ - الحجوي : تقرير تاريخي ص 7.

⁷ - الصبيحي : أصول ... ص 133-134.

⁸ - عن بنعدادة أسية : مفهوم الحماية عند الحجوي ص 115. وفي نفس السياق يقول أحمد بن الطيب العلوي "كان الطالب يزاول حفظ القرآن، حتى يحفظه استظهارا، ثم يأخذ في حفظ المتن مع بعض الشروح المختصرة، ثم ينزل إلى ميدان العلم" العلوي احمد بن الطيب : مذكرات الطيب بن احمد العلوي ص 46.

والمستظهرة عن ظهر قلب دون فهم¹ فكانت النتيجة هيمنة الجمود. ومن العوامل كذلك، تحدث المصلحون، عن ضعف الكفاءة التلقينية لدى المدرسين، وعدم مراعاة بعضهم لمستوى طلبته "فتراه يتشوق بجلب الأنقال الغريبة، أو يمضي في المناقشات اللفظية والاحتمالات العقلية، والحال أن الطلبة أمامه غير مستعدين لذلك²، ولم يتحدث هؤلاء عن الضعف، المنهجي التعليمي، وحده، ضمن الظواهر السلبية في أوساط مدرسي القرويين، بل كان إلى جانبه كذلك، نوع من الضعف في الكفاءة والأهلية المعرفية والعلمية عزوه إلى حشر زمرة من المدرسين دون استحقاق في المهمة. وإلى من وصلوا إلى مناصبهم "بحسب اليد والقربى" - كما قال الحجوي³ - أو "حسبما خول لهم ذلك أقاربهم ومعارفهم" - كما قال ابن الأعرج⁴.

إن هذا النوع من التعليم، لم يستطع - في رأي الإصلاحيين- أكثر من استنساخ نفسه، وإعادة إنتاج ذاته، وانشغال متخرجيه بالسفسطة، ومجموعة الإشكالات البعيدة عن العقل وعن الواقع أحيانا، وعن العلم بمعناه النافع أخرى، فقد لاحظ ابن الأعرج أن "شبان الطلبة اليوم شأنهم البحث عن نملة سليمان، وعن ذي القرنين أو جزئيات فقهية ضرورية يفردون بها بالتأليف أو إعراب قام زيد أو بيان وجوه الصفة المشبهة أو تأويل نصوص الشرع الشريف للمتنازعين لدى القضاة، أو شيء من الفقه يعلمونه، ولا يعملون به، حتى تأخروا عن العلم"⁵.

ومن خلال مجمل الانتقادات التي وجهها المصلحون لنظام ومناهج وبرامج التعليم بالقرويين، توصلوا في مقارنات بينها وبين الزيتونة بتونس، والأزهر بمصر، غالبا ما اهتموا بعقدها، إلى أن التعليم في المؤسستين المذكورتين أفضل بكثير منه في القرويين، بسبب استفادة الأزهر والزيتونة من الإصلاح، وأن الطالب المتخرج من القرويين، أضعف ملكة واقتدارا من الطالب المتخرج من المؤسستين الأخريتين رغم أن مدة التعليم بالقرويين أطول بكثير⁶.

إن واقع جمود العلم، والتعليم، وتأخرهما بالمغرب، ليس واقعا متأسلا - في رأي هؤلاء - وإنما هو حادث دخیل، أرخوا له مثل غيره من مظاهر التراجع والجمود، بظاهرة التراجع والتفوق التي عرفتتهما الحضارة الإسلامية بصفة عامة، ففي رأي ابن الأعرج، "منذ باد الأفاضل، وساد الأراذل، وتكسرت أقلام العلماء

¹ - الحجوي : الفكر السامي : ج 2 القسم 4 ص 222-223.

² - الصبيحي: أصول ... ص 135.

³ - الحجوي : من كتابه للسلطان المولى عبد الحفيظ على يد الفقيه أحمد الخضر الريسوني م س ص 75.

⁴ - السليمانى : ... ص 591.

⁵ - السليمانى : ... ص 158-159.

⁶ - الحجوي : كناش ح 129 م خ و.

الأعلام، وتمزقت محابر الأدباء الفخام، وقف العلم لا يتحرك، إذ صادته أمم أوروبا، ونصبت له الشرك"¹. وهذا تفسير من بين إحالاته المضمرة، الإشارة المستترة إلى ماض إسلامي مجيد، في مجال العلم والتعليم، وهو ماض يتكرر الحديث حوله، في خطاب المصلحين باستمرار، والتنويه بالإسلام، الذي جاء "ناديا (...) إلى التأمل في أنواع المحسوسات، والمعقولات، أمرا بالتعليم والتعلم، ناهيا عن كتمان العلم، متوعدا بأشد العقاب من عرف علما فكتمه"²، والذي جعل من أحد أركانه الخمسة، وهو الحج، مناسبة للتعرف على "أحوال الأمم واقتباس المعارف"³. والتنويه كذلك بالمسلمين الذي أخذوا منذ الصدر الأول "يتوجهون وجهة العلوم ينقبون عن آثارها، ويتتبعون مضانها، ويستوضحون طرقها، فأزاحوا عن كتب العلم الأرصاد، وفكوا عنها الطلاسم، وترجموا ما وجدوه من كتب اليونان، والسريان، والكلدان، إلى لغتهم العربية، يتساوى في العناية بها الرئيس والمرؤوس، فأتسعت بذلك مدارك أفكارهم وسمت مراتب معارفهم"⁴ والذين اهتموا في عصورهم الزاهرة، بالتدريس، قناة لاستمرار وتوارث العلم، وأنجبوا مدرسين نبهاء لهم سعة في المعرفة وإلمام بالمادة العلمية، وأسلوب متميز في تحضير وإلقاء الدروس"⁵. وفي هذا النوع من الخطاب، ومثله كثير في كتابات رموز الإصلاح، رؤية إصلاحية، تدعو بوضوح إلى "الإحياء"، وإلى "الاقتباس". "إحياء" مجد السلف في مجال العلم والتعليم، أيام ازدهار الحضارة الإسلامية، و"الاقتباس" من أوروبا في نفس المجال، لأنها التي ورثت المسلمين واجتهاداتهم، فطورتها، وأضافت إليها.

¹ - عن عمراني محمد: جامعة القرويين فيما بين 1914-1934، رسالة غير منشورة كلية الآداب الرباط 1987 ص 138.

² - السليمانى : اللسان....ص 161

³ - الحجوي: النظام في الإسلام، ص 58.

⁴ - السليمانى :..ص 161.

⁵ - الحجوي : النظام في الإسلام ص 98.